رواق الصمت

بقلم

فادية رمضان

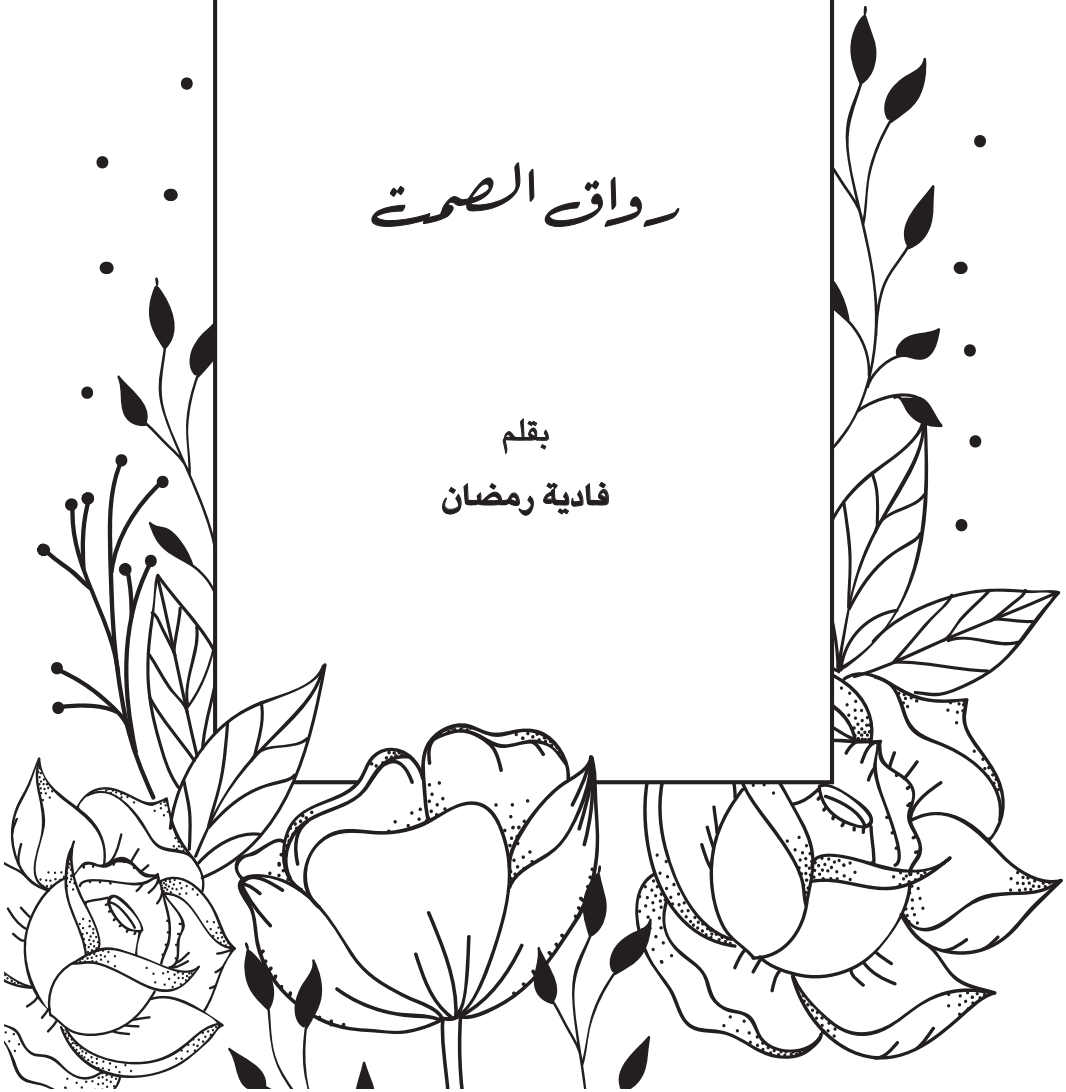

إلى حد اليوم ما زلت أجهل الأمر الذي شدني إليك، وجعلني أدفع أغلى ما لدي مقابل تأشيرة تدخلني مدينتك، تأشيرة تدخلني لحياتك وتأذن لي بالتجول بين ثناياها العامرة؟ أكان ولوجي إليها يتطلب – حقًا – أنهارًا من الدمع ومذلة تجلد وجه الواحد منا، وتمسح به أزقة الكرامة الفخمة، فيصير جوربًا ممزقًا رثًا؟ أكان حقًا نقري على أبوابك يستدعي وابل الإهانات والجراح هذا؟

استملتني، استقطبت عاطفتي، ثم أدخلتني حياتك وأريتني أجمل ما فيها من معالم النخوة ومشيدات الصدق وميداليات العطاء؛ أبهرتني وأنت تلتقط معصمي وتجول بي بين أزقتها النيرة البهيجة، وعلى وجهك ترتسم ملامح طفل شيد قصرًا لوالدته من ورقة يا نصيب.

وبما أنك تقمصت دور الولد بإتقان يا «آدم»، توجب عليَّ التكيف ودور الوالدة الحنون العطوف، ففرحت لكل تصرف بدر منك، عانقتك بروحي متى احتجت دعمًا، حصنتك بدعواتي متى نسيت ذكرًا، بكيت لضيقك – دون أن تدري –، كنت لك صدرًا رحبًا ترتمي به متى شئت.

لكنك، اليوم، تحولت ولم تعد «آدم» الذي تبنيت، كبرت يا بني، ولا بد من أن أولوياتك تتكالب على الصدارة، وامرأة هشة المعدن

مثلي، لا قوة لها كي تصمد أمام أحلامك وأولوياتك، لا! لقد فقصت بيضك الآن، وحلَّقت بحثًا عن قوتك في مكان بعيد جدًّا، بعيد عني، عن وكري، تنصلت مني، هجرتني، تركتني خلفك أبحث عن مخرج يخلصني من أزقتك المتداخلة.

أنا الآن وحيدة، تائهة، أتسكع عند منتصف الليل بين تلك الأزقة العتمة الباردة، لا أعرف لنفسي اتجاهًا ولا سبيلًا يخرجني من مدينتك التي تحولت بين ليلة وضحاها من فتانة إلى مرعبة... أنا أجوب أزقة، لا أذكر بأنني زرتها معك من قبل يا «آدم»؛ ظننتك أريتني كل شوارعك ومخارجك، لكنني كنت مخطئة؛ كتب عليَّ أن أواصل اكتشافي لحقيقتك بمفردي على ما يبدو! لن أخفيك بأنني جد خائفة مما يترقبني.

حسنًا، يسمى الشارع الذي علقت به «رواق الصمت»، إنه شديد الظلمة يا «آدم»، يبدو مخيفًا جدًّا... مهلًا.. مهلًا.. أنا أرى سكيرًا مستلقيًا عند عتبة باب كتب عليها «خمارة الذكريات».. أعتقد بأن عليَّ الاستنجاد به، لعله يدلني على مخرج!

أخذت أدنو منه وأنا أرتعش من شدة خوفي، وما أن صرت أقف على بُعد خطوات منه، وتحسبًا لأية هجمة مرتدة؛ لأن منظره كان لا يوحي أبدًا بالوداعة، كان بشعًا، أشعثًا، ذا أظافر طويلة مقرفة، مرعبًا، رث الثياب، تنبعث منه رائحة قذرة لا تُطاق؛ حاولت أن أكلمه محافظة على تلك المسافة،

«عفوًا، سيدي.. أتسمعني؟».

وهو بالكاد يتماسك:

«ماذا تريدين؟ هيا اغربي عني.»..

«أتوسل إليك أن تساعدني.. دلني على مخرج أرجوك..».

تأملني لوهلة ثم انفجر ضاحكًا:

«تقول بأنها تود الخروج من هنا!».

ثم أمسك بذراعي واسترسل:

«لكن.. هل فقدت عقلك!؟ أنا سكير، لكنني أوعى منك حسبما يبدو!».

«لكن... لم لا يمكنني؟».

«لأن «آدم» لن يسمح لك بذلك، ولأنني لا أسمح لك».

هنا، صعقت وصبغ أصفر الدهشة مطلعي:

«عفوًا، من أين تعرف هذا الاسم؟».

يرد مبتسمًا:

«كم أنت بريئة يا فتاة! وهذا سبب كافٍ كي أضغط على «آدم» ليبقيك رهينة عندنا، لا ينبغي له أن يخسرك أبدًا».

«لكن، من أنت؟».

هنا صفعت نفسي بكف الواقع على أمل أن أستيقظ من هذا الكابوس اللئيم، ثم أخذت نفسي تساورني: لا بد وأنني جننت لأكلم سكيرًا! لا، والأسوأ من ذلك أنني أحاول الإصغاء إليه!، حاولت فك ذراعي من قبضته، لكنني لم أنجح.

«أفلت ذراعي من فضلك!».

«مستحيل؛ لأن رحيلك سيقهرني، سيضعفني، أنا أتلذذ ببقائك هنا، أتلذذ بخدمتك الدءوبة لهذه المدينة المنسية، أنا أعشق دمعك لأنه

خمري، خمري الذي يبقيني على قيد الحياة ويمكنني من تحمل هكذا عيشة؛ لأن بها شيئًا طاهرًا وسط كم القذارة، أحتاج دمعك وعذابك كي أعيش... أبدًا لن أسمح لك بالرحيل».

«أفلت ذراعي، أنت تؤلمني، دعني أرحل من فضلك..».

شدني إليه بقوة وقال:

« تعاليْ، سأريك شيئًا».

أخذ يجرني بقوة وكأنني متهمة تساق للإعدام، بين تلك الزوايا العتمة التي كانت بحاجة لمصباح واحد فقط كي تتضح معالمها، كان نبضي متسارعًا، وأنفاسي متزاحمة، أرمي بخطواتي في درب مجهول المصير، كنت أرتعد خوفًا.

وبعد أن مشينا مسافة معتبرة، إذا به يتوقف أمام باب حديدي، ثم أخذ يقلب بجيوبه – أظن – عن مفتاحه؛ ولما فتح الباب، تفاجأت بأسد مكبل، يحاول أن يزأر لكنه كان مكتوم الأنين، هنا نظر إليَّ السكير وقال:

«تأملي جيدًا هذا الأسد».

أذعنت له.

«أرأيته؟».

«أجل، وماذا بعد؟».

عاود غلق الباب بإحكام مرة أخرى دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم سحبني مجددًا واتجهنا نحو بيت ليس ببعيد، والذي لم ندخله من بابه، بل تسلقنا شجرة قادتنا إلى سقفه، أين أمرني بأن ألقي نظرة من

الزجاج على دواخل ذاك البيت الذي وجدته ملتهبًا، تأكله النيران من كل جانب، كان وكأنه الجحيم.

«أرأيت جيدًا ما يحدث بهذا البيت؟».

«أجل».

ثم عاد لاعتناق الصمت، وأنزلني برفق من تلك الأغصان المتماسكة، ثم انحدر بي نحو الحانة التي ألفيته عند بابها، حيث ألفينا سيدات أنيقات، جميلات، رشيقات، يحتسين الخمر ويتهامسن علي..

أومأ لي:

«هل رأيتهن؟».

فهززت برأسي.

أخرجني أيضًا من تلك الحانة قابضًا على ذراعي الذي ازرق، وانتهى بي إلى بيت معتم، دخلناه بهدوء ثم أخذنا ننزل السلالم على رءوس أقدامنا، وكأننا لصان، ولما بلغنا القبو، ألفيناه بين فكي العتمة المخيفة، فجأة أفلتني، لأضيع في ذاك الظلام الحالك، ولأتخبط في خوف هستيري... وبعد صمت مطبق، قال بنبرة متعجرفة، مخيفة:

«أتتوقعين بأنني سأسمح لك بالمغادرة بعد كل الأشياء التي أريتك إياها؟».

أجبته بصوت مرتجف:

«أية أشياء؟ فأنا لم أفهم شيئًا، أرجوك أن تخرجني من هنا».

أخذ يضحك وكأنه مجنون، ثم همس بأذني بطريقة أفزعتني:

«أنت تخشين العتمة، صح؟».

«بلى».

«جميل!».

«لمَ تعاملني هكذا؟ بم أسأت لك؟».

«ستعرفين الآن..».

حاولت أن أعرف موقعه من خلال ذبذبات صوته التي غزت المكان، لكنني فشلت، كان يرعبني، وكأنه شبح؛ لا تسمع له غير نقر خطواته المتفرقة، تارة هنا وتارة هناك، وكأنه يسخر مني! وكانه يتعمد إخافتي! فجأة، تمت إنارة المكان، فوجدتني بمحيط مخيف، تملؤه لوحات تحمل طلاسم، ورموز غريبة، لم أفهم منها شيئًا، أخذت أتجول بنظري بين تلك اللوحات مبهمة المعاني، حتى وقع نظري على أخريات كتب عليها، بلغة أفقهها جيدًا: «حقير»، «أنا لا أبكي أمورًا تخليت عنها بقناعتي وإرادتي المنفردة»، «أكبر عشرين عامًا»، «وضيع فكر»، «غبائي من قام باختيارك»، «يا معذبي»، « حثالة اختياري...».

استحوذت الدهشة على تقاطيعي، وأنا أتأمل بأحداق متسعة ذاك المكان المقرف، فإذا به يقترب مني، وعيناه تتدفقان حقدًا:

«أترين هذه الكلمات؟ أتعرفين من صاحبها؟».

لزمت صمتي ولم أجبه.

وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

«إنه أنت، أنت... أسمعت!؟ أنت.. كلما أرسلت حرفًا قصد تدميري، جرحت بحرفك ذاك ركنًا من جسدي ورسمت بدمي حرفك القاتل ذاك، وتعهدت بألا أحل عنك وأن أزداد بطشًا بذاكرتك».

«حرفي؟».

«أنسيت؟ أم لأن « آدم» ظل صامتًا ظننت الأمر لم يؤثر بي؟».

فجأة سحبني، وقذفني أرضًا أمام خزانة أكل الدهر عليها وشرب، ولما فتحها، وقعت منها ملايين الوريقات؛ حاولت أن أقرأ فحواها، لكن دهشتي شلت ذهني عن استقبال أو ترجمة أي شيء، فقلت بنبرة تخنقها الدهشة:

«ما كل هذا؟».

فيرد بنبرة ملؤها الخيبة:

«رسائلك، كلها، لم يضع منها حرف واحد».

ثم رجمني بزجاجة العطر التي أهديتك يا «آدم»، ثم دنا مني وهو يحملق في بطريقة مربكة، التقط يميني وسلمني أول خطاب خلعت فيه مشاعري خمارها بحضرتك.. لا أفهم يا «آدم» كيف لهذا السكير أن يعرف كل هذه التفاصيل عنا!؟

وضعت كل شيء من يدي، وهممت خارجة من القبو، لعلي أستفيق من هذا الكابوس المزعج، لكنه لحق بي واستوقفني قائلًا:

«لا لا، لم ينته العرض بعد».

«أرجوك! هذا يكفي، دعني أرحل».

«لن تهربي، دعيني أعرفك أولا على الأماكن والكائنات التي صادفتها منذ حين».

«كلا، لا أريد أن أعرف، شكرًا لك».

«أنت لم تري شيئًا بعد في صمت «آدم»، لا، وكنت تحاولين كسر قيود صمته! أندمت الآن؟ أتشعرين بالخزي؟».

«كلا، لكنني اكتفيت، لا أرغب بالمزيد».

«كنت شجاعة جدًّا حينما دخلت رواق الصمت، فكوني كذلك حتى النهاية».

دفعته لكنه حاصرني إلى الحائط حابسًا نفسي عن الهلع.

«أول ما أريتك إياه، ماذا كان؟».

قلت له بنبرة ملؤها الخوف:

«الأسد المغلول».

«أتعرفين ماهية ذاك الأسد؟».

«لا، لا أعرف».

أخذ يعبث بخصلاتي، ثم اقترب مني وأخذ يتسلق عنقي بأنفاسه القذرة، ثم استرسل:

«ذاك الأسد هو... الشوق، شوقي العاصف لك، شوق»آدم» المرضي لك، فإذا حررتك من مدينتي وأطلق «آدم» سراحك، لن تكوني تحت رقابته، سنجازف كلانا بخسرانك، وأنا لا أحب الخسارة، أخشى الخسارة، أتعلمين لم؟ لأنك إن رحلت، سيتحرر شوق «آدم» لك وأفقد بذلك سيطرتي عليه، ولأنني سأكون أول ضحايا ذاك الأسد، ولا شك في أنه سيمزقني، رحيلك سيفقدني حياتي، أتعين ذلك؟ وبالتالي لن أجازف..».

«لكن من أنت؟».

«شووووو... وما الشيء الثاني الذي أريتك إياه؟».

وأنا أحاول حبس نفسي عن استنشاق قذارته:

«المنزل المحترق».

«آه.. المنزل المحترق، وهل تعرفين ما تأويله؟».

«كلا لا أعرف».

أخذ يداعب برفق ذراعي بأنامله المقرفة، ثم قبض عليه بشدة وقال:

«تلك النار هي... نار الغيرة، ورحيلك يعني أن يفقد «آدم» أبسط حقوقه بك، وأن يتحمل رؤيتك تلتقطين ذراع رجل غيره، معناه أن يكون جسدك، خصلاتك، عطرك، كلماتك، زينتك ملك لرجل غيره، رحيلك يعني حظرنا عن مستجداتك ونفينا عن أرضية مخططاتك، معناه أن يحمل رحمك جنين رجل آخر، و«آدم» لن يتحمل ذلك، أما أنا! فسأموت لأنك إن رحلت ستتحطم جدران تلك الدار المتماسكة وتحترق المدينة بمن فيها».

لم أستطع قول شيئًا حينها، وكأنني فقدت لغتي، فإذا به يعاود سؤالي من جديد عن أمور لا أعرف لها تأويلًا:

«وما كان الأمر الأخير الذي أطلعتك عليه؟».

«الحانة».

وهو يحملق في عيوني بتمحيص:

«أتعرفين النسوة اللاتي كن بها؟».

«ومن أين لي أن أعرفهن؟! لا بد وأنهن من يمتعنك في وقت نزواتك».

«أصبت، فعادة أرواد تلك الخمارة فقط من أجلهن، لكنني أهواك أكثر منهن؛ أنت أنقى منهن وأطهر...».

اقترب مني وأخذ يداعب وَجْنَتَيَّ بيديه المقرفتين، وقد توهجت عيونه بالرغبة الحقيرة، واسترسل هامسًا:

«لي أن أضاجعهن متى شئت، أما أنت! فعلى الرغم من أنني انفرد بك، وبداخلي رغبة جامحة مرضية في الحصول عليك، لكنني لا أستطيع أن ألوثك، أتعرفين ما الفرق بينك وبينهن؟».

بعد أن أبعدته عني كي يطيب لي التنفس:

«لا أعرف».

«الفرق بسيط، هن، أرغب بأجسادهن، أما أنت، فأرغب بروحك، فقط روحك».

لوهلة تملكني الخجل، فحاولت أن أبعده عني لكن حجمه فاق طاقتي.

استرسل:

«لا تخافي، لن أؤذيك، تلك النسوة هن ذكرياتك، ذكرياتي، أنا و»آدم» معك، هذه الذكريات هن من يضمنَّ قوت وأمان سكان رواقي، يخدرنني عن غيابك، أضاجعهن كي لا أحن إليك، أطردك مني بهن.. وأبعث بإحداهن في كل ليلة لـ»آدم» كي تسليه وتعزز من ثباته كي لا يضعف، وينحر صمته أمامك، أرشوه بالذكرى كي يقوى وإلا دمرتنا».

قلت بأعين يرهقها الفضول:

«ماذا تريد مني؟».

«أن تبقي، ألا تحبي رجلًا بعدنا، أن تتألمي، أن تتعذبي دون أن تقطعي أمل الوصال يومًا، أن تكوني فقط لنا، ألا تسمحي لرجل

آخر بأن ينهي استبدادنا في حياتك، أن تدمني عطرنا، أن تقبلي شوكنا وتؤثريه عن ورود البقية، كوني وفية لنا، وإن هجرك «آدم»، كوني على يقين من أنني لن أتخلى عنك أبدًا، لأنني أعيش على قيدك يا فتاة».

«أنتما! من أنتما؟».

«أنا وآدم».

«ومن أنت؟».

وهو يضحك:

«أنا حاكم رواق الصمت يا «صوفيا»، أنا غرور آدم».

* * *